المقتبس

غرة شعبان سنة ١٣٢٤

صدور المشارقة والمغاربة

كيتي

١٧٤٩ ـ ١٨٣٢

ليس الغنى أبداً مفسدة لصاحبه معواناً على الشر والاشر كما ان الفقر لايهذب النفوس ويربي الملكات . فابن الغني اذا حسنت تربيته وجاد تعليمه يجيء منه رجل قلما يجيء مثله من أبناء الزعانف والسوقة . وليست هذه القاعدة على اطلاقها في البلاد الراقية والبلاد المنحطة فقي الشرق اليوم لا يتعلم ويتهذب سوى ابن الفقير وندر ان يشيع العلم والتهذيب بين أبناء الاغنياء كما تشيع الفاحشة وسوء السلوك . والحال في الغرب على العكس من ذلك اذ ترى هناك لاولاد الاغنياء حظاً من العلم وسهماً من التهذيب . شاع ذلك بين أهله منذ نهضوا نهضة الشعير الخبير لتلمس أسباب الحضارة وكثر ذلك بين اظهرهم في هذا القرن والذي قبله فبات الغني موقناً بانه لا يستوفي الظرف ويذهب بفضل الشهرة وتنهال عليه ضروب المحمدة إلا اذا تهذب

التهذيب الحقيقي وتمام التعليم العالي وهما داعية مجده وفخاره لاواسع عقاره ووافر نضاره .

وكيفما تقلبت الدنيا بأهلها فان الموسر خير من المعسر على نحو ما سير دعليك في ترجمة كيتي أحد أعاظم شعراء المانيا ورجال نهضتها العلمية والادبية . فقد قيل في ترجمته انه كان من اسعد السعداء خدمه الحظ وهيأ له عامة الاسباب وتمكن من الانتفاع بالمواهب العالية التي وهبته الطبيعة اياها . ولم يكن كصاحبه شيلر مضطراً معوزاً بل كان السعد يبسم له والرفاهية طوع أمره وهو من أسرة شريفة كان والده مستشاراً للمملكة وفقيهاً مشهوراً ورجلا فاضلا مهذباً اما والدته فكانت سليمة الصدر جيدة الفطرة توفرت على تربيته وتثقيف عقله ولطالما كانت تلقنه في طفوليته قصصاً ثم تقطع عليه سلسلتها ليتصور ماذا يكون تاليها .

ولقد استحكم الجمال من شعور هذا الشاعر حتى لم يكن يطيق ان يرى ولداً بشع الصورة امامه فكيتي والحالة هذه جمع الى الغنى مالامثال اللورد ليتلتون الانكليزي وفيكتور دروي الفرنسوي وهو من بيت غنى ومجد يضاف اليهما حسن تربية والدته فقد كانت والدته تدر به على الاخلاق الفاضلة وتسوقه الى المنازع الشريفة اما والده فكان يعلمه ويلقي عليه ويكلمه منذ صغره بالطليانية والفرنسوية وكان يحسنهما ولا سيما الطليانية لان طول مقامه في ايطاليا حبب اليه لغتها وفنونها فشغف بها . ولما ترعرع كيتي أحكم هاتين اللغتين مع لغته وظهرت عليه امارات الميل الى الشعر كما عرف بحب النقد والولوع بالعلوم فال بادي بدء وهو في الحادية عشرة الى شعر راسين من شعراء الفرنسيس ثم أنشأ يرتاح الى شعراء الرومان واليونان . وفي سنة ١٧٦٣ دخل مدرسة

الحقوق في ليبزيك وكان يأوي الى دار عجوز لها فتاة فشغفته حباً فنظم فيها رواية هزلية واعتاد مذ ذاك العهد على نحو ماقال عن نفسه ان يصيغ في قوالب الشعر كل ما كان في الواقع يوليه فرحاً أو ألماً ويروض العقل ويربي النفس وعاد الى بيت أبيه من المدرسة سنة ١٧٦٨ بعد ان فارقه ثلاث سنين وقد أيقن ان الآداب الالمانية ضعيفة متأخرة ثم رجع به المرض اعتراه الى ستراسبورغ سنة ١٧٧٠ واقام فيها حولا كاملا كان نافعاً له في تهذيب عقله وتخطيط خطة يجري عليها في حياته . قالت الدائرة تعلم كيتي في ليبزيك ما ينبغي اجتنابه وعرف في ستراسبورغ ما ينبغي عمله . وفي سنة ١٧٧١ أتم دروس الحقوق . وكان في خلال الدراسة يضرب في فنون الشعر ويهيم في أوديته وشجونه .

وبينا كان شاعرنا ينشر طرف أقواله او يعدها للنشر كان يتقرب من كبار رجال عصره ويستميل قلوبهم اليه ويحرص على عقد الصلات الادبية معهم فطاف كثيراً من بلاد المانيا وسويسرا وايطاليا وتعرف الى رجالها وفلاسفتها وعظمائها ثم تولى منصباً سياسياً في الحكومة . ولم تكن مشاغله لتحول دون أعماله العلمية . فكنت اذا رأيته حسبته منقطعاً عن كل عمل ليس لقلمه في ميدان التأليف جولة وان المتاعب العالمية صرفته عن وجهته العلمية على حين كان عقله يفكر ولسانه يحبر ويعبر .

ولقد ثبت ان وظيفته ما كانت الا باعثة له على الاستزادة من المعارف . ولو كان يريد ان ينحو منحى قدماء الشعراء لانقطع في غرفته واعتزل الناس ومخالطتهم ولكن كان يطمح الى ان يجمع في شعره مثال القدماء الى ما يتأثر به ويتعرف به بذاته من أحوال المجتمع .

وفي سنة ١٧٨٨ تزوج الشاعر بفتاة اسمها كرستيان فولبيوس شقيقة احد الكتاب فنظم في التقائه معها قصيدة من الشعر قال فيها ما ترجمته :

« كنت اتنزه في الغابة سائراً في طريقي ولا شيء يعنيني ولا فكر ينازعني .

«فرأيت في الظل زهرة مطلة تلمع كالنجم الثاقب وهي كالنظرة جمالا .

« اردت ان اقطفها فتقدمت اليّ بلطف تقول هل يكون ذلك منك ليقضي عليّ ان اذبل وأنت تجنيني وتقطفني

« فعندها اخذتها من أصولها وحملتها الى الحديقة التي هي زينة داري

« وما هو الا ان أعدت غرسها في مكان ساكن وها هي الآن مخضرة مخضلة تزهر على الدوام . »

ولقد عيب على زوجته انها لم تكن في الدرجة المطلوبة من العلم تساوي بها درجة بعلها بيد انها كانت كما وصفها الشاعر تعنى بمصالح زوجها وبنتها وأولادها وهذا مما كان يزيد اغتباط كيتي بها لانها كانت امرأة حقيقية تنظر في شؤونها البيتية .

وفي سنة ١٧٩٤ بدأت صلات الحب بين كيتي وشيلر وما كان اجتماع الشاعرين بادي بدء دالاً على الصدقة التي تأكد بينهما بعد بل كان اجتماعهما لاول وهلة اجتماع تكلف وكره . فتعارفا سنة ١٧٨٨ ولم يتأت تآلفهما حقيقة الا سنة ١٧٩٤ عند ما اسس شيلر مجلة سماها « الساعات » وكان يطمع ان تشترك الطبقة العالية من كتاب المانيا بها فأبى اكثرهم ان يؤازروه فوعده كيتي بالمساعدة وكتبا سوية كتاباً فيه قصائد هجائية كان كيتي هو الذي اقترح موضوعه فالقاه معاً . وكان ذلك واسطة لاتحادهما فتناولا فيه التنديد بالتقاليد القديمة والنقد على ارباب الاذواق السمجة التي كانت تحول دون

تقدم الادب فكان ذلك منهما بمثابة اعلان للطريقة الجديدة التي أساساها في القريض واخذ خيال الشعر والادب من ذاك العهد يوحي اليهما كل طريف وتليد فيتطارحان الافكار ويتناشدان الاشعار وكل منهما محب لصاحبه يبوح له بذات نفسه ويراقب اعمال صديقه مراقبة الود . دامت هذه الصداقة محكمة العرى الى ان توفي شيلر سنة ١٨٠٥ .

ولقد حاول كيتي في تآليفه — وكانت أولاً منضمة غير منتشرة كتآليفه بعد — ان يعرف القارئ حال المتفنن وما يشغله في العالم من الاعمال . وبعد ان فقد كيتي صديقه شيلر كما تقدم لم يبق في حياته ما يستحق الذكر وامتاز بنقد من كانوا يستحسنون الثورة الفرنسوية الاولى وأبان عن افكاره قائلا : اني اكرر باني اكره كل ما فيه شدة وتهور لانه مخالف للطبيعة . وفي سنة ١٨١٣ نحى الشاعر في خلال الحركة الوطنية وترك المجال لشعراء أصغر منه سناً يؤلفون الاغاني الحربية ويحثون الجمهور . وحاول وهو في السبعين أن ينسج على منوال ديوان حافظ الشيرازي شعراً المانياً في أفكار شرقية وأناس شرقيين فنظم ديواناً سماه ديوان الشرق والغرب . وهو سفر أغان وإن تكن المانية الصبغة فان تنوع أوزانها واختلاف اسمائها واستبدال الاسماء الشرقية بالغربية جعلها غريبة في بابها تصدر من شيخ شاب .

وبعد أن فقد والدته وولده وصديقه الحميم بعد شيلر ضعف سنة ١٨٣٢ فوافاه أجله وقضى عند الظهر جالساً على كرسيه وكان آخر كلامه « ليدخل النور بكمية اكثر »

وقد كتب كيتي كثيراً من الاسفار في كل موضوع وكان كثيراً ما يعاشر أهل الاختصاص في كل فن فيبوحون اليه بافكارهم ويبوحون له باسرارهم

وان المرء ليعجب بما خلفه كيتي من التآليف الممتعة المنوعة التي يستغرق وصفها صفحات من مثل هذه .

جاز كيتي كسائر الكتاب ثلاثة أدوار وهي دور التكوّن ودور النضوج ودور الانحطاط الا ان دور نضوجه كان طويلاً ودور انحطاطه لم يخل من قوة . وقسم بعض مترجميه ادوار حياته الشعرية الى ثلاثة ادوار الدور الاول الحبي والطبيعي الثاني المدرسي الثالث التعليمي . ولم يستنكف كيتي من الاخذ عن كبار شعراء الارض كشكسبير وروسو وهوميروس وكتاب الفاجعات من اليونان والاماديح من اللاتين . وقال في بعض تآليفه : وهل أحسن فينا من القوة وحسن الذوق في امتلاك عناصر العالم الخارجي واستعمالها في مقصد سام . ولذلك امتاز بقوته التقليدية في الشعر والادب وقوته في التحويل وقوته في التجديد مع مزج ذلك بالنقد وقوته على الابداع ولم يشغله الادب والشعر عن معاطاة العلوم الاخرى كعلم النبات والحيوان والجيولوجيا والمنيرولوجيا والطبيعيات ووفق الى اكتشافات مهمة في التشريح والفسيولوجيا النباتية .

هذا هو الرجل العظيم الذي ربي في قصور النعيم وما أفسده الترف والرفاهية جمع في شخصه مزايا كثيرة وعلوما كبيرة قلما يكتب لها الا لكبار العقول في الامم والقرون العديدة ولا غرو فان قيام أمثاله في القرن الماضي والذي قبله هو الذي فتح على المانيا أن تكون اليوم في مقدمة الخليقة بعلومها وأعمالها . فسبحان من أسعدها برجالها وأسعدهم بها وأشقى رجالاً في الشرق وأشقى الشرق بهم